

تفسير القرآن الكريم وبيانه

- المفهوم والتطبيق عند مصطفى بوهندي -

إعداد: أ.د/ عبد الرحمن معاشي

كلية أصول الدين

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

مقدمة:

لا يكاد يخفى أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للتربية الإسلامية الصحيحة، التي بها صلاح البشرية في جميع شؤون حياتها، وهذه التربية لن تؤتي أكلها إلا بفهم هذا المصدر فهما جيدا وتفعيله في الواقع وتطبيقه تطبيقا صحيحا، ولذلك فشلت الأمة بالقيام بدورها في إصلاح حال الأمة في حالتين:

الأولى: عندما ابتعدت التربية عن هذا المصدر التربوي الأصيل، ولجأت إلى مصادر أخرى مخالفة له.

والثانية: عندما أخذت بهذا المصدر دون فهم صحيح أو منهج قويم، فترتبت على ذلك بعض المخالفات للمنهج القرآني في التطبيق.

ولأجل ذلك فقد بذلت الأمة -مثلة في علمائها- منذ القرن الأول جهدا جهيدا في تفهم وتفسير القرآن الكريم وتدبره، فخلفت لنا تراثا زاخرا من الكتب والمؤلفات، كلها تحاول نيل مراد الله تعالى ومقصوده من الخطاب والتكليف، ولا يخفى ما يعترض هذه الاجتهادات من الخطأ ومجانبة الصواب طيلة هذه الفترة؛ إذ لا عصمة إلا لمن عصمه الله من أنبيائه ورسله.

ومع ذلك فإن هناك اتجاهات أخرى يسعى إلى نسف كل تلك الجهود؛ بدعاوى ومبررات مختلفة، أهمها عدم حاجة القرآن الكريم إلى تفسير أصلا، لأنه نزل مبينا وآياته مبينات، وأن أي جهد يعمل على تفسيره فإنه يعرض القرآن نفسه إلى الغموض والضمور، ويجر إطلاقيه القرآن وصلاحيته لكل زمان ومكان...

ومن بين الذين انبروا لهذا الاتجاه وتحمسوا له: الدكتور مصطفى بوهندي؛ الذي ألف في موضوع التفسير وبيان القرآن مؤلفات كشف فيها عن هذه الآراء الجريئة والخطيرة في آن معاً.

ويمكن تصنيف مثل هذه الآراء في دائرة المراجعات الحداثية -المستوحاة من المناهج النقدية الأدبية- للوحي وللتراث، التي لم تكتف برفض التراث والدعوة إلى القطيعة معه، بل أكثر من ذلك طعنت في كثير من المسلمات والثوابت الدينية الإسلامية، وفي تعالي القرآني الكريم وقداسته.

وهذه الورقة تقدم تحاول أن تعرض لبعض آراء الدكتور مصطفى بوهندي في تفسير القرآن الكريم، خصوصاً ما يتعلق بالمعنى الاصطلاحي للتفسير، ومدى حاجة الناس لتفسير القرآن الكريم، وكذا مشكلة التفسير التي تعود في رأيه إلى اعتقاد النقصان في البيان القرآني.

وسأعرض لهذا الموضوع في النقاط الآتية:

مقدمة:

أولاً: لمحة مختصرة عن مصطفى بوهندي

ثانياً: التفسير بين المعنى القرآني والمعنى الاصطلاحي

ثالثاً: الحاجة إلى التفسير

رابعاً: مشكلة تفسير القرآن الكريم في رأي بوهندي

خاتمة:

أولاً: لمحة مختصرة عن مصطفى بوهندي¹

الدكتور مصطفى بوهندي باحث مغربي أستاذ مقارنة الأديان في بالدار البيضاء، كاتب ومحاضر في مواضيع عديدة تتعلق بالقرآن وتفسيره وفي الحديث.

أثار الدكتور مصطفى بوهندي الكثير من الانتقادات بسبب آرائه في مواضيع مختلفة رأيه في عصمة الأنبياء أنه لا عصمة لهم وأن النبي محمد له أخطاء بشرية².

رأيه في أن أبا هريرة كذاب ولا تصح أحاديثه وليس صحابيا، وقد تم الرد عليه في كتاب خاص اسمه: السهام الكاسرة لشبهات بوهندي الخاسرة.

وصرح أيضا بأن "إن ابن كثير انتهى زمانه، و الإمام مالك فقدت صلاحية كلامه، وصرح في مكان آخر : أن "القرآن ليس إعجازا لغويا ولغته لغة عربية عادية ليست معجزة وهو حتى في تحديه للناس وللعالمين لم يقل إنه كلام معجز. ويرى الدكتور مصطفى بوهندي أن الفكر الإسلامي يحتاج إلى زلزال يجتاح المسلمات التي لا تقوم على أي سند.

ألف مجموعة من الكتب، أهمها:

كتاب : "أكثر أبوهريرة"؛ كتاب ينتقد فيه أبا هريرة معتبرا أنه ليس صحابيا وأن الأحاديث التي رواها ليس بصحيحة وهو لا يقدم فيها لجديد بل سبق للكاتب عمود أبو رية أن قدم كتابا عن نفس الموضوع بعنوان : شيخ المضيرة أبوهريرة.

كتاب: "التأثير المسيحي في تفسير القرآن"؛ وهو عبارة عن نقد للتراث الإسلامي في موضوع تفسير القرآن وخصوصا تأثر المفسرين بالتراث المسيحي في مواضيع كثيرة.

كتاب : "نحن والقرآن"؛ ينقسم كتاب " نحن والقرآن " إلى أربعة أبواب أساسية، حاول الكاتب من خلالها أن يقارب القراءات المتعددة، التي حولت آيات القرآن من أدلة وبراهين تخاطب العقل والقلب والجوارح إلى مقاطع مقدسة يحرم التفكير فيها ومدارستها، وينوب عنه في تفسيرها رجال شهدت لهم مؤسسة الجماعة بالإمامة والمشيخة، وسلمتهم دون غيرهم حق الاجتهاد والتفكير.

¹ الموسوعة الحرة ويكيبيديا.

² جريدة السبق بوهندي، لا عصمة للأنبياء.. والنبي محمد له أخطاء بشرية كثيرة، نسخة محفوظة: 22 مايو 2013 على موقع: واي باك مشين.

ثانيا: التفسير بين المعنى القرآني والمعنى الاصطلاحي

لم ترد لفظة التفسير في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، في سورة واحدة هي سورة الفرقان في قوله تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا) [الفرقان: 23-34].

وتتحدث هذه الآيات عن النزول المفرق للقرآن وكونه وسيلة تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، وتمكينه من ترتيل القرآن أحسن ترتيل، أو الرد على الأمثال والشبهات التي يثيرها المشركون وبيان الحق فيها، وتفسيرها أحسن تفسير. وتعتبر آيات القرآن المفرقة النزول هي المفسر لما أتى به المشركون والكفار من أمثال وشبهات، ويقوم الرسول بتلاوة هذه الآيات عليهم ليتبين لهم الحق، فيحيي من حيي منهم عن بينة ويهلك من هلك منهم عن بينة، بعد أن قام الرسول الحجة عليهم بكتاب رهم وآياته البينات¹.

و "التفسير" في هذه الآية لا يعني ما اصطلح عليه العلماء والمفسرون من العلم الذي "يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن الكريم ومدلولاتها وأحكامها الانفرادية والتركيبية، ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب، وتتمت ذلك"². أو "توضيح معنى الآية وشأنها وقصتها والسبب الذي نزلت فيه بلفظ يدل عليه ظاهره"³، أو غيرها من التعريفات، إذ القائم بالتفسير في الآية هو الله سبحانه وتعالى في كتابه الجيد وآياته البينات، بينما يقوم بالتفسير في العلم المسمى بهذا الاسم الناس من علماء ودارسين وغيرهم، وشتان بين الأمرين. فالأول كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد تكفل الله بحفظه، ولا تنفذ كلماته ومعانيه... بينما لا يتجاوز الثاني أن يكون غرفات من البحر الذي لا ينفد، مرتبطة بحدود الإنسان والزمان والمكان والثقافة، قابلة للاستمرار والتجاوز والصواب والخطأ، معرضة للزوال والفناء، يتداخل فيها الاجتهاد والرأي والنص والأثر، وشتان بين الأمرين.

ولعل تسمية هذا العلم بـ "التفسير" أو "تفسير القرآن" تطرح علينا أكثر من مشكلة معرفية ومنهجية، منها: أن التفسير يعني البيان والتوضيح وكشف المعطى، قال ابن منظور: "الفسر: البيان، فسّر الشيء يفسره بالكسر، ويفسره بالضم، فسرا، وفسره: أبانه، والتفسير مثله، ابن الأعرابي: التفسير والتأويل والمعنى واحد، وقوله عز وجل:

¹ التأثير المسيحي في تفسير القرآن، مصطفى بوهندي، ص10.

² الإتيان في علوم القرآن، السيوطي، 382/2.

³ التعريفات، الجرجاني، ص22.

(وأحسن تفسيراً): الفسر: كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل، والتأويل: رد أحد المحتملين إلى ما يطابق الظاهر¹.

فإذا كان هذا المعنى يمكن أن يتوافق إلى حد ما مع مدلول الآية، حيث توضح آيات القرآن المفرقة النزول ما جاء به المشركون من أمثال وشبهات، وتكشف المغطى فيها وتبين الحق وتزيل الإشكال، فإنه يشر كثيراً من المشاكل المعرفية إذا تناولنا به "التفسير" بالمعنى الاصطلاحي، حيث يكون القرآن الكريم هو المفسر، ومن ذلك:

- أليس القرآن مبيناً؟ ونزل بلسان عربي مبين؟ وآياته مبينات ومبينات؟ وهو تبيان لكل شيء؟ وهو البيان لكل الناس وليس بعده بيان؟

- وهل يخاطب الله الناس بالمغطى عنهم والمشكل عليهم وما لا يفهمون، حتى يأتي المفسرون فيكشفون المغطى ويزيلون الإشكال ويستخرجون المعاني التي يفهمها عموم الناس؟

- وهل نزل هذا القرآن لعموم الناس يتدبرون معانيه كل بحسب طاقته وحدوده المعرفية، أم نزل لخصوصهم الذين توافرت فيهم شروط محددة ومعلومة، ليكونوا وسطاء بين الناس وبين القرآن يفسرون لهم ما لا يمكنهم فهمه من الكتاب؟

- وهل يدعي أحد من هؤلاء الوسطاء المفسرين أنه أعلم بمعاني الكتاب من عموم الناس، وأن تفسيره له يغنيهم عن تدبره وقراءته والنهل من معينه الذي لا ينضب؟

- وهل يدعي أحد من هؤلاء الوسطاء المفسرين أن تفسيره لكتاب الله قد أضاف إلى القرآن شيئاً أبانه به، لولاه لبقى القرآن غامضاً ومشكلاً وغير مبين بالنسبة لعموم العالمين؟

- وهل يدعي أحد منهم أن تفسيره لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه، وعلى عموم الناس إذا أرادوا فهم كلام الله عز وجل أن يمروا عبر هذا التفسير أو ذاك ليصلوا إلى المراد؟

وغيرها من الأسئلة التي يجاب عنها بأن القرآن مبين في قمة البيان غير محتاج إلى بيان خارجي من الناس، وهو مفهوم وغير مغطى وغير مشكل وميسر للذكر لمن أراد أن يذكر، وقد نزل لعموم الناس ولخصوصهم، كل يفهم منه حسب اجتهاده وسقفه المعرفي، ولا يضيف أحد إلى بيانه شيئاً ولا ينقص منه شيئاً، ولم يتخذ الله بين الناس وبين كتابه وسيطاً، دونه لا يفهمون ولا يعلمون مراد ربهم، بل إن رسول الله رسول أمين نقل إلى الناس كلاكهم كما جاءه، من دون أن يضن عليهم منه بشيء، أو يتقول على الله بعض الأقاويل وكان يبلغهم ما يتلقاه فور وصوله،

¹ لسان العرب، مادة (فسر).

فكان يتلو عليهم آياته آناء الليل وأطراف النهار، ويقرؤه عليهم على مكث ويجاهدهم به ويذكهم به ويعلمهم به، ويرد به على الأمثال والشبهات، ويشرهم ويتلوهم به... لعلهم يتفكرون.

وعليه فإن القرآن أكبر من يفسره بشر، وكل ما جاء في كتب التفسير من تفسيرات إنما هي اجتهادات وآراء وأفكار وأخبار وروايات وآثار تتحدث عن القرآن المجيد، وتنهل من معينه، وهي مقاربات بشرية للمعاني القرآنية وما يتعلق بالقرآن الكريم، وهي تقترب حيناً وتبتعد أحياناً عن البيان القرآني نفسه، متأثرة بعوامل الثقافة والزمان والمكان والإنسان. ولا يعني ذلك أبداً أن القرآن غامض وآياته مشككة، وعموم الناس لا يستطيعون فهمه، وهم في حاجة ماسة إلى أهل التفسير يكشفون لهم الغامض ويزيلون الإشكال ويفسرون لهم المعاني. بل على العكس من ذلك، ما أكثر الإشكالات التي أثارها المفسرون والمعاني التي بلبوها، والغوامض التي أحدثوها بتفسيراتهم واختلافاتهم ومروياتهم المختلفة¹.

إن قوله تعالى: (وأحسن تفسيراً) لا يتعلق بشرح الألفاظ الغريبة ولا استخلاص الإشارات البعيدة ولا بيان الظروف المحيطة، أو الأشخاص والأماكن والأحداث المقصودة ببعض المقاطع أو السور، وإنما يتعلق بالبيان الذي يقيم الحجة على كل مشرك ومرتاب حتى يتبين له أنه الحق وتزول عنه كل الشبهات. ولا ترجع مشكلة المشرك والمرتاب هنا إلى مشكلة لغوية بسبب جهل لفظة أو عدم معرفة كلمة أو التباس معنى آية، وإنما ترجع مشكلته إلى عدم تبين الحق فيما جاء به الكتاب من علم رباني، فتراه ينكر أن الله واحد، وينكر أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن هناك جنة ونارا وغيرها، وإن المتأمل لسياق الآية التي وردت لفظة تفسيراً ليرى ذلك جلياً، قال تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً)، فالكفار في هذه الآيات يستنكرون أن ينزلا القرآن مفرداً (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة)، ويضربون هذا مثلاً للتشكيك في أن هذا الكتاب من عند الله. ولكن القرآن يجيبهم بما يزيل الشبه ويبين الحكمة، فغاية النزول المفرق تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم من جهة وترتيل القرآن من جهة ثانية، والرد على الأمثال والشبهات التي يجيء بها المشركون وبيان الحق فيها وتفسيرها أحسن تفسير من جهة ثالثة، بما لا يترك أي مجال للتشكك والارتياب والظن السيئ.

هذا هو شأن القرآن مع الأمثال التي يضربها الكفار والمشركون، فيرد عليهم بما يظهر الحق ويهزق الباطل. ومن الأمثلة المبينة لذلك:

¹ التأثير المسيحي في تفسير القرآن، ص 12-13.

قوله تعالى في سورة الإسراء: (نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلا مسحورا. انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا. وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا. قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبر في صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطرکم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا...) [الإسراء: الإسراء: 47-52].

وقال تعالى في سورة يس في شأن البعث كذلك: (أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين. وضرب لنا مثلا ونسي خلقه. قال من يحيى العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم. الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون... ترجعون) [يس: 77-83].

ففي هذه الآيات البينات ضرب الكفار والمشركون لمسألة البعث مجموعة من الأمثال وأثاروا جملة من الشبهات، رد عليها القرآن بما يدحضها، ويبين الحق فيها ويفسرهما أحسن تفسير. وليست مشكلة التفسير هنا مشكلة ألفاظ أو كلمات أو عبارات أو أساليب، أو كلام مشكل أو غير مفهوم أو ما إلى ذلك، وإنما المشكلة مشكلة عقائد وتصورات ومفاهيم وسلوكيات واختيارات بين الإيمان والكفر، وبين الحق والباطل.

ثالثا: الحاجة إلى التفسير

إذا حاولنا تجاوز مشكلة مصطلح "التفسير"، التي تطرح نفسها بجدّة، كلما تعرضنا لموضوع التعامل مع النص القرآني، وأردنا أن نتجاوز معناه الدقيق، والذي يفيد كشف الغموض وإزالة الإشكال وبيان الحق، إلى المعنى الراجح، والذي يفيد الاجتهادات والآراء والخواطر والمرويات التي لها علاقة قريبة أو بعيدة بالنص القرآني، وقابلة للصواب والخطأ بدرجات متفاوتة، وأردنا أن نتطرق إلى مدى الحاجة إلى التفسير بالمعنى الأخير، فلا بد من التأكيد بادئ ذي بدء على بعض المقدمات الأساسية¹:

1- مقدمات أساسية:

القرآن المبين:

¹ التأثير المسيحي في تفسير القرآن، ص14.

أ- القرآن الكريم كتاب مبين ميسر للذكر قادر على البلوغ إلى قلوب الناس وعقولهم وحياتهم بما لا يستطيعه غيره من كتب البشر ولو اجتمعت، وكلامه واضح جلي بين، ليس في كلام المخلوقين وكتبهم أوضح منه وأجلى وأبين. ومن ثم فإن كل تفسير له هو مقارنة بشرية لن ترقى أبداً أن تكون بديلاً عنه في البيان، ولا في الإحاطة بالمراد.

العلاقة مع القرآن:

ب- وعلاقة الإنسان بالقرآن سواء أكان علمه في أدنى الحدود أم في أعلاها، هي علاقة أخذ وتعلم وتركيز وتدبر وتفكير فيما أنزل الله، بدءاً من رسول الله وإلى أبعد الناس عن الحق المبين، وليست هذه العلاقة علاقة تفسير وزيادة في العلم أو نقصان منه، يقدمها المفسر للقرآن، فيكون تفسيره حينئذ ضرورياً لولاه لنقص من القرآن أو زيد فيه شيء ليس منه، بل على العكس من ذلك، فإن المتدبر لكتاب الله يكتشف فيه من أسراره، ويستخرج من درره، وينهل من بحره الذي لا ينفد.

وكثيراً ما يرغب المتدبر في إبلاغ الناس تجربته، وإيصالهم إلى معرفة ما فتح الله به عليه من نور الفهم والعلم، لكن عبارته لا تسعف، ولغته لا تستطيع الإحاطة بأسرار التجربة وخفايا الفتح، وبلاغه لا يمكنه من اختراق حواجز العادة والبلادة لدى المستمعين إليه إلا قليلاً. فإذا أضفنا إلى ذلك فوارق الثقافة بين الناس وبين الملقى والمتلقي خصوصاً أدركنا مدى ضيق مسالك نقل تجربة التدبر، والعراقل والعوائق التي تعترض بيانها للناس، فيكون حينئذ أقرب طريق لبيانها هو دعوة الناس إلى خوضها ومرافقتهم في ذلك إلى أن يستأنسوا بها ويدركوا منها ما استطاع الداعي لها أن يدركه أو أقل أو أكثر. ولن يكون أحد منهم أبداً مفسراً للنص القرآني، بل كلهم يتدبره وكلهم يعبر عما توصل إليه في مقارنة بيانية لتجربته التي بالتأكيد لن تستطيع الإحاطة بالبيان القرآني ولن تفسره¹.

التدبر تجربة إنسانية:

ج- إن التعامل مع النص القرآني تجربة، يتفاوت الناس في خوضها، منهم من لا يستفيد منها إلا كما يستفيد الحمار من الأسفار التي يحملها، ومنهم من تكون تجربته ممتعة لكنه لم يدرك ما أحدثته فيه من تغيير على مستويات متعددة، ومنهم من لم يخض تجربة التدبر إلا قليلاً، لكنه جمع أقاويل وآراء الناس السابقين عليه أو المعاصرين له حول آيات القرآن فنقلها، ومنهم من علق عليها ورجح وأضاف وهكذا.

¹ التأثير المسيحي في تفسير القرآن، ص 15.

إن النص القرآني يدعو الناس للتدبر في آيات الله المتلوة في الكتاب، والتفكر فيها سواء آيات الأنفس أو الآفاق أو المجتمع أو التاريخ أو التشريع أو الغيب، وسواء تلك الآيات التي جاءت في ما ضربه الله من أمثال أو قصص أو أخبار أو غير ذلك.

وبالتدبر والتفكر يصل الناس إلى مراد اله تعالى من الآيات؛ وهي عملية دائمة مستمرة، ترفع الناس درجات في العلم والإيمان.

التدبر منهج نبوي:

د- لم يكن منهج النبي صلى الله عليه وسلم مختلفا عما سبق ذكره، فقد كان يقرأ القرآن ويتدبره ويتفكر في آياته الماثورة فيه، ويقرأه عليه الناس وينصت فترى عينه تفيض من الدمع مما عرف من الحق. ورئى أصحابه على هذا التدبر، فكان يتلو عليهم آياته في فترات مختلفة على مكث، ليبين لهم ما نزل إليهم لعلهم يتفكرون، ويبقى القرآن صالحا للتدبر والتفكر والاستنباط، والإجابة على كل متطلبات الحياة المتجددة.

هـ- نعم إذا سمينا التدبر تفسيرا، فنحن في حاجة إلى "التفسير" بهذا المعنى، وهو تدبر وتفكر وتعبير من أجل الهداية في المعاش والمعاد، والقرآن ينص على هذه الهداية. وأقوال الناس في "التفسير" عبارة عن تعليقات نسبية على النص، لا ترتقي أبدا لاحتوائه، وهي قابلة للخطأ والصواب وللثبات والتجاوز، وهي في حاجة إلى الدراسة النقدية، ويمكن الاستفادة منها في تدبر أكبر للنص، غير أنه لا يليق أن تصبح "هذه التعليقات" حاجزا بين الناس والقرآن.

و- إن هذه التعليقات والملاحظات إن سماها الناس تفسيرا فلا مشاحة في الاصطلاح، لكن هذا التفسير لن يضيف إلى النص القرآني شيئا. فالعناصر البيانية فيه تحتاج فقط إلى اكتشاف، والاكتشاف بدوره يحتاج إلى تدبر وتفكر ولكن هذا الاكتشاف البشري نسبي نظرا للسقف المعرفي الذي يوجد تحته المتدبر، وكلما ازداد الناس في العلم والبحث ازدادوا في الاكتشاف. ولا يعني ذلك أن البحث والتدبر مقصور على فئة "الباحثين والعلماء"، بل على العكس من ذلك، فإن كل الفئات مطلوب منها البحث والتدبر ليزدادوا في العلم والإيمان كل حسب مستواه، وهو ما يرفع السقف المعرفي واليقيني لدى عموم الناس فيرسخون في العلم ويثبتون في الإيمان¹.

لكن هذا التفسير إذا أصبح سقفا للمعنى القرآني، فقد حكمنا على هذا المعنى بالنسبية والضمور، وحجرنا إطلاقية القرآن ونقصنا من صلاحيته لكل زمان ومكان. كما أن هذا التفسير إذا أصبح مبينا للقرآن، لا يخطئ ولا

¹ المرجع السابق، ص16.

يتجاوز، فقد حكمنا على النص القرآني بالغموض وعدم البيان، وأن بيانه يوجد في الرواية المفسرة. وهذا إدانة صريحة للبيان القرآني.

2- التفسير الذي نحتاجه:

ز- نحن في حاجة إلى توجيه الناس إلى التدبر الجماعي لآيات القرآن الكريم في الاختصاصات والمجالات المختلفة. نحن لسنا في حاجة إلى "التفسير" المانع من تدبر القرآن الكريم، والملزم بأقوال تاريخية الله أعلم بصحة نسبتها إلى قائلها من البشر، والله أعلم بالظروف المناسبة لقولها، والله أعلم بتوفيق قائلها أو عدمه في مقارنة الصواب، ولكن بكل تأكيد لن ترقى أبدا هذه الأقوال لتكون بديلا عن النصوص القرآنية نفسها¹.

النسبية في التفسير:

ح- نحن في حاجة إلى "تفسير" يؤكد على النسبية في كلام قائله أمام كلام العلي الأعلى، ويؤكد على الخصوصية والجزئية في الإدراك البشري أمام الكلام الرباني المطلق والكامل.

نحن في حاجة ماسة إلى التدرب على "العملية التفسيرية" وخوض غمارها من أجل التعلم واكتساب الثقة في النفس وفي القرآن، ولا يخيفنا احتمالات الخطأ التي تلجم كل حركة اجتهادية، بل إن الحرية الفكرية هي التي تسمح لكل شخص أن يقول ما يراه صوابا دونما خوف من أي سلطة إلا سلطان الدليل والبرهان.

3- هل يحتاج القرآن إلى تفسير بالمعنى الاصطلاحي؟

القرآن كامل لا نقص فيه، وواضح لا غموض فيه، ومبين لا إشكال فيه. والناس تجاه القرآن إما أن يسلموا قياده لتعليمه وهدايته وحكمه، ولا يقدموا بين يديه شيئا، ولا يعجلوا بالقرآن من قبل أن يقضى إليهم وحيه، ويكمل جمعه وبيانه ويصبرون عليه حتى يحدث لهم ذكر ما لا يعلمون، ويبين لهم ما يجهلون.. وإما أنهم يقدمون معارفهم على آياته وثقافتهم على علمه، باحثين عما يتقاطع مع زينهم فيها، فيحملون نصوصه ما لا تحتل، فيحرفون الكلم عن مواضعه، وهم لا يشعرون أو وهم يعلمون.

والقرآن مبين وميسر للذكر ومعد للتدبر والتفكير. وإدراك بيانه يحتاج إلى جهود في القراءة والتدبر والتفكير، ويقدر الجهد المبذول يكون الاكتشاف المرتقب.

¹ التأثير المسيحي في تفسير القرآن، ص17.

نعم، ما أجمل من القرآن في موضع فقط فصل في غيره، وما لم يذكر في هذا المكان فقد ذكر في مكان آخر. وللجهد البشري دخل في اكتشاف ذلك، لكنه ليس إضافة للقرآن أو تفسيراً له، وإنما هو البيان القرآن نفسه يتبارى الناس في تعقله وإدراكه، فتتضح رؤية المتدبر أكثر ويتبين الحق الجلي، ونزول الوسوس والأوهام والشبهات وينسخ الله ما يلقي الشيطان، ثم يحكم الله آياته، فيؤمن بها المؤمنون. ومهما أدركوا منه فإن كلماته لا تنفذ، وعجائبه لا تنقضي، ومهما أدرك الإنسان من ذلك فلن يضيف إلى البيان القرآن شيئاً ليس منه.

إن "التفسير" وإن كان مصطلحاً قرآنياً ذكره الله تعالى في قوله: (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً) [الفرقان: 33]، فهو يتعلق بالبيان القرآني وليس بالبيان البشري للقرآن الكريم، أو ما يسمونه "تفسير القرآن الكريم".

رابعاً: مشكلة تفسير القرآن الكريم في رأي بوهندي¹

إن مشكلة "تفسير القرآن الكريم" ترجع بالأساس إلى اعتقاد النقصان في البيان القرآني حتى قال قائلهم في أقسامه: "قسم لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى، وقد استأثر سبحانه بعلمه"، و "قسم لا يعلم إلا بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم"²، و "قسم يعرفه العلماء"، و "قسم لا يعذر أحد بجهله"³.

1- ما اختص الله بعلمه:

فأما القسم الذي اختص الله بعلمه، فعلى الناس أن يلجموا عن القول فيه، وأما القسم الذي بينه النبي صلى الله عليه وسلم فلا يجوز القول فيه إلا اتباعاً لهذا البيان، وأما القسم الذي يعلمه العلماء فلا بد من الرجوع إليهم فيه، والقسم الأخير هو الذي يسمح لعموم الناس بالنظر إليه وتأمله.

وهكذا تكون الأقسام الثلاثة الأولى غير مبيّنة بالنسبة لجميع الناس، فأما القسم الأول فهو مغلق على الجميع بمن فيهم رسول الله. ولا أدري ما بال القرآن يخاطب الناس بما لا يعلمون وفي نفس الوقت يعتبر مبيّناً وميسراً للذكر؟ ومن له الحق في تحديد هذه النصوص "غير المبيّنة" والتي "لا يعلم تأويلها إلا الله" بمعنى "لا يفهم معناها إلا الله" حسب دعواهم؟

¹ التأثير المسيحي في تفسير القرآن، ص 19-20.

² جامع البيان عن تأويل القرآن، 1/ 33.

³ أورد الطبري رواية عن ابن عباس جاء فيها: "التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله". جامع البيان، 1/ 34.

لقد ضرب الذاهبون إلى هذا القول أمثلة لهذه النصوص "مجهولة المعنى" بقولهم: "مثل ميقات الساعة وظهور الدجال... واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: (وعنده علم الساعة [الزخرف: 58])"¹.

فأما مثل هذه الأمثلة التي ضربوا، فلا دلالة عليها على ما يذهبون إليه، إذ الله سبحانه قد أخبرنا في آيات عديدة أن لا أحد يعلم ميقات الساعة، وأنها لا تأتي بغتة، ومن ثم فالنصوص المتحدثة عن هذا الأمر "واضحة المعنى" مبينة، دالة على المراد، وليست مما لا يعلم معناها أحد. وأما ظهور الدجال فلا حديث في القرآن عنه حتى نقول: هل النصوص المتحدثة عنه واضحة المعنى أم خفيته. ولا يدعي أحد أن نصا من القرآن لم يتعرض له العلماء والناس عموما بالقراءة والتدبر، حتى يقال إن هناك نصوصا استأثر الله بعلمها ولم يطلع عليها أحدا من عباده.

وبهذه الدعوى اتخذ بعض الناس منهج التوقف أو التفويض، في فهم مجموعة من النصوص القرآنية على اعتبار أنها مما "لا يعلم تأويله إلا الله". والحقيقة أنها لما خالفت مناهجهم ونظرياتهم أفرغوها من معناها الواضح الجلي بهذه الدعوى المغلوطة الباطلة.

2- ما لا يعلم إلا ببيان رسوله صلى الله عليه وسلم:

أما ما لا يعلم إلا ببيان رسول الله، فلا أدري أي الآيات اختص صلى الله عليه وسلم بفهمها وبيانها دون العالمين، ولولا بيانه لها لضاعت الأمة في علم معانيها. وعليه فإن بياناته يجب أن تكون محفوظة كحفظ القرآن بل أكثر، وهو أمر غير صحيح، إذ لم يذكر لنا عنه فيما يتعلق بالقرآن الكريم إلا آيات معدودة، وأقوال ذكرها صغار الصحابة ولم يذكرها كبارهم مع أنهم عاشوا معه عمرا مديدا. فهل بياناته التي بين لهم ولم يتمكنوا من روايتها أو لم يجدوا المناسبة المواتية لذلك تجعلها في عداد العدم والضياع؟ وهل ضاعت بضياعها معلومات من الدين وبقي القرآن بسبب ذبك غير مبين، عللا الأقل في النصوص التي فقدت بياناتها؟

إنه من خلال المباحث المختلفة في هذا الكتاب وخصوصا تلك التي تناولت "التفسير النبوي" و "الأحاديث النبوية" التي أسست عليها العقائد، اكتشفنا خلا عظيمًا وقع فيه المفسرون بسبب هذه الدعوى مما سمح بتمرير الكثير من العقائد الكتابية إلى الفكر والثقافة الإسلامية..

¹ قال الطبري: "وأن منه ما لا يعلم تأويله إلا الله الواحد القهار، وذلك ما فيه من الخبر عن آجال حادثة وأوقات آتية، كوقت قيام الساعة، والنفخ في الصور، ونزول عيسى ابن مريم، وما أشبه ذلك، فإن تلك أوقات لا يعلم أحد حدودها، ولا يعرف أحد من تأويلها إلا الخبر بأشراطها لاستئثار الله بعلم ذلك على خلقه". جامع البيان، 1/ 33.

ونطرح سؤالاً آخر على هذا القسم: هل كل ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في "تفسير القرآن" يدخل في هذا القسم؟ أم أنه يشترك مع غيره من الأقسام، فيمكن للعلماء وربما لعموم الناس أن يكتشفوا مثله؟ ومن يدعي أنه يستطيع تصنيف النصوص القرآنية تبعاً لهذا التقسيم وبأي منهج؟

بل إن المفسرين والأصوليين قد اختلفوا في مقدار تفسير النبي، من فريق يعتبر المفسر فيه كل القرآن، إلى معتبر أن تفسيرات النبي لا تتجاوز بضع آيات، ولكل فريق أدلته المعتمدة. إلا أن المأخذ عليها أنها مبنية على الاستنباط من آحاد النصوص، وليست استقراءات من خلال مجموع الروايات عن النبي في مجال التفسير.

3- ما يعلمه العلماء:

أما ما يعلمه العلماء، فهل يتفاوتون في العلم به أم هم في درجة واحدة؟ وإذا كانوا يتفاوتون، أو لا يتفاوت معهم عموم الناس في هذا الأمر، فيكون بعض الناس أعلم من بعض العلماء في بعض القضايا؟ أو ليس العالم في تخصص قد يكون ناقص علم في تخصص آخر؟ ويكون غيره أعلم منه في هذا التخصص والعكس صحيح. فما مقياس العالم والعلماء إذن؟ وفي أي تخصص؟ وهل يأخذ الشهادة من شيوخه أم من تلاميذه أم من مخالفه أم من عموم الناس؟ وهل للمذهبية دخل في هذه التركيبة أم لا؟ وهل تركية العالم تغني عن محاسبته من خلال أقواله حتى لا يقول في القرآن ما يشاء بدعوى أنه من الراسخين في العلم، المتوفرين على الشروط؟ وهل الشروط الموضوعية للعالم قد اجتاز من أجل اكتسابها امتحاناً يشهد على توافرها عنده؟ وهل إذا توافرت هذه الشروط فقد أصبح العالم حينها منزهاً عن الخطأ؟ ومقابله ذلك الذي لم يتوفر على الشروط، والذي لا يجوز له أن يجتهد، وعليه فطريق علمه هو ما يقوله المجتهد؟

وهذا ما يجعل للعلماء المجتهدين حق الوساطة في فهم القرآن بين الله والناس، وهو ما يحرم غير المجتهدين من حق التعامل الحر مع النص القرآني وتدبره والنهل منه، مخافة أن يخطئوا، ومخافة أن يتجرأوا على كلام الله عز وجل فيقولوا فيه بأرائهم أو بغير علم، فيضلون ويضلون؟

إن وساطة العلماء قد ساهمت في ترسيخ فكرة "عدم بيان القرآن"، لأن ما يحتاج إلى بيان فهو غير مبين، وإن قالوا عكس ذلك فهم على مستوى الإجراء يخالفون قولهم، ويقومون بـ "تفسيره" و "كشف غموضه"...

وإن شروطهم الشديدة على المتعرض لتفسير كتاب الله، تجعل عملية التعامل مع كتاب الله جد معقدة، إن لم نقل مستحيلة. فإذا أضفنا إلى ذلك أن جل هذه الشوط مرتبطة بالمرويات المنقولة وبالأصول والقواعد المعتمدة على هذه المرويات، اتضح أن العملية الاجتهادية نفسها لا تخرج عن إعادة إنتاج نفس الأفكار والمفاهيم والمقولات. وهكذا يصبح علم العلماء، علما يحمي الثقافة القائمة من التجاوز، والمناهج القديمة من التجديد ويصادر كل محاولة تخرج عن هذا الإطار، تارة باعتبارها رأيا من غير علم، وتارة أخرى بدعوى أنها ابتداع وخروج عن المألوف وما عليه العلماء وأجمعت عليه الأمة.

إن وساطة العلماء هذه تجعل حق الوصاية على الناس، وحق منع من "هب ودب" من التعامل المباشر مع النص القرآني، وليس من بأس -بعد ذلك- أن يقرأ القرآن للبركة والثواب دون التدبر والتفكير والتوجيه العلمي والعملية في مجالات الحياة المختلفة، وهو أمر في غاية الخطورة، يجعل الناس -من دون أن يشعروا- يتخذون من أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله.

هذا، وإن فكرة الشروط وتوافرها في العلماء لتضفي عليهم هالة موهومة من القداسة والتبجيل مما يرفعهم عن المحاسبة والنقد والانتقاد، ويجعلهم أئمة لا يسألون عما يفعلون وهم يسألون ما يفعله ويقوله غيرهم، بل ويصل بهم الأمر إلى الكلام باسم رب العالمين. وفي ظل هذه الهالة من القدسية تكرر كل أخطاء "العلماء" إلى الناس باعتبارها دينا واعتقادا لا يقبل المناقشة والمساءلة.

خاتمة:

بعد هذا العرض المتواضع، يمكن إجمال فكرة بوهندي في تفسير القرآن الكريم في هذه النقاط:

- 1- لم ترد لفظة التفسير في القرآن الكريم إلا مرة واحدة، تحدثت فيها عن النزول المفرق للقرآن وكونه وسيلة تثبيت فؤاد النبي صلى الله عليه وسلم، وتمكينه من ترتيل القرآن أحسن ترتيل، أو الرد على الأمثال والشبهات التي يثيرها المشركون وبيان الحق فيها.
- 2- القرآن مبين في قمة البيان غير محتاج إلى بيان خارجي من الناس، وهو مفهوم وغير مغطى وغير مشكل وميسر للذكر لمن أراد أن يذكر، وقد نزل لعموم الناس ولخصوصهم، كل يفهم منه حسب اجتهاده وسقفه المعرفي.

- 3- لا ترجع مشكلة المشرك والمرتاب هنا إلى مشكلة لغوية بسبب جهل لفظة أو عدم معرفة كلمة أو التباس معنى آية، وإنما ترجع مشكلته إلى عدم تبين الحق فيما جاء به الكتاب من علم رباني.
- 4- إن أقرب طريق لتفسير القرآن وتدبره هو دعوة الناس إلى خوض هذه التجربة ومرافقتهم في ذلك إلى أن يستأنسوا بها.
- 5- كثيرا ما يرغب المتدبر في إبلاغ الناس تحريته، وإيصالهم إلى معرفة ما فتح الله به عليه من نور الفهم والعلم، لكن عبارته لا تسعف، ولغته لا تستطيع الإحاطة بأسرار التجربة وخفايا الفتح، وبلاغه لا يمكنه من اختراق حواجز العادة والبلادة لدى المستمعين إليه إلا قليلا.
- 6- نحن في حاجة إلى توجيه الناس إلى التدبر الجماعي لآيات القرآن الكريم في الاختصاصات والمجالات المختلفة، ولسنا في حاجة إلى "التفسير" المانع من تدبر القرآن الكريم، والملزم بأقوال تاريخية الله أعلم بصحة نسبتها إلى قائلها من البشر، والله أعلم بالظروف المناسبة لقولها.
- 7- إن مشكلة "تفسير القرآن الكريم" في رأي بوهندي ترجع بالأساس إلى اعتقاد النقصان في البيان القرآني، وهذا أمر محال.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- الإيتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط: 1394هـ - 1974م.
- التأثير المسيحي في تفسير القرآن، مصطفى بوهندي،
- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، ت: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ - 2000م.
- كتاب التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1403هـ - 1983م.
- لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي، دار صادر - بيروت، ط3، 1414 هـ.
- جريدة سبق بوهندي، لا عصمة للأنبياء.. والنبي محمد له أخطاء بشرية كثيرة، نسخة محفوظة: 22 مايو 2013 على موقع: واي باك مشين.
- الموسوعة الحرة ويكيبيديا.